كانت البلاغة فناً يُدرَك بالحسّ الجمالي ، أو كانت جمالاً يدرك بالذوق ، فأصبحت على أيديهم أحكاماً أو معارف صاغوها في حدود وتعريفات !

كنت تقرأ النصّ أو تسمعه فتأخذك الروعة ويكتنفك السحر ، وقد لا تدري سبباً لإعجابك، ولا تعرف علّة لسرورك ، حتى يأخذ بيدك ابن الصنعة — كالجرجاني أو الزمخشري — فيقفك على موطن الجمال الذي استهواك ، ويربط بينه وبين نفسك برباط من ذوقه وفكره ، فإذا سبب الإعجاب مكشوف لعينيك ، واضح أمام ناظريك ، فتزداد فوق إعجابك بالجمال إعجاباً بمعرفة سرّه . ونشوة بإدراك أمره . ثم أصبحت تقرأ النص فلا تشعر أمامه بشيء ، ويأتي عالم البلاغة ليقول لك إن فيه كذا وكذا نوعاً من البديع ، فلا يزيد النص جمالاً في عينيك ، ولا يغني شعورك بجديد ، وإنما هي اسماء تعارفوا عليها ، واصطلاحات وضعوها ، يحلّلون النصوص ليستخرجوها منها كما يستخرج عالم الكيمياء عناصر مادة يحلّلها ، دون أن يكون لتحليلهم صلة بالجمال ، أو رابطة بالذوق .

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إنه لم يأت بعد عصر الجرجاني والزمخشري مَن فهم البلاغة فهمها إياها ، وإن الذين جاؤوا من بعد إنما كان عملهم